مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (5) العدد (6) 2021
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (5) No. (6) 2021

الألم الشمولي وتوجهاته الرومانسية في الشعر الأندلسي
شعر القرنين الخامس والسادس الهجريين

أ.د عيسى فارس*

د. وفاء جمعة**

أحمد سليمان علي***

(تاريخ الإيداع 9 /3 /2021. قُبِل للنشر في 11/7 /2021)

□ **ملخّص** □

يولدُ الإنسانُ حاملاً معه بدايات أزمةٍ ستعايشه طوال عمره، وهي أزمةُ الحياة ؛ وذلك حين يدرك ما فيها من خير، وشرٍّ، وسرورٍ، وحزن، فيتعرض في ذلك إلى مجموعة من الصدمات التي تتكدَّس في داخله ليصبح الألم رفيقه، وتصدر هذه الآلامُ عن فقدِ عزيزٍ أو أمنيةٍ أونعمةٍ أو حرمانٍ ما، والشعر يحمل بياناً واضحاً عن تلك الاختلاجات؛ فيكون الحامل النفسي، والرؤيوي لها، والتعبير المريح عمَّا يشعر به الإنسان الشاعر.

نتتبَّع في سياق الدراسة مساراً مهمَّاً من مسارات الألم في الشعر الأندلسي؛ هو مسار الشمولية في التعبير عن الشعور الفردي؛ إذ يمكن ملاحظة بعض التوجهات الرومانسية في التعبيرات الشعرية الأندلسية عن آلام أصحابها، وهذا ما تريد الدراسة الجارية البحث فيه؛ إذ اعتمدت الشواهد الشعرية وفق الأساس الوجودي المشار إليه، وسايرت بينه والمجال العاطفي الرومانسي الذي يقوم على أساسٍ مهمٍّ هو عظمة الذات المبدعة؛ وعليه فإنَّ ما يصدر عنها عظيم، وما تشعر به كبير حتَّى لو كان الوجع والحزن، ومشاعر الألم المعروفة.

الكلمات المفتاحية : الألم، الرومانسية، الشعر الأندلسي، القرن الخامس الهجري، القرن السادس الهجري.

*أستاذ، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.

**مدرسة، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.

***طالب دكتوراه، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقيَّة، سورية،

مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (5) العدد (6) 2021
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (5) No. (6) 2021

Totalitarian Pain and Its Romantic Orientations in Andalusian Poetry
Poetry of the fifth and sixth centuries AH

DR. Eisaa Faris*
DR. Wafaa Jumea**
Ahmed Sulaiman Ali ***

(Received 9/3 /2021. Accepted 11/7/2021)

□ ABSTRACT □

Human is born carrying with him the beginnings of a crisis that he will live with throughout his life, which is the crisis of life. And that is when he realizes what is good, evil, pleasure, and sadness, and in that he is exposed to a group of shocks that accumulate within him and pain becomes his companion, and these pains arise from the loss of a dear, wish, grace or deprivation, and poetry bears a clear statement of those convulsions. So he will be the psychological bearer, the visionary for her, and the comfortable expression of what the human poet feels.

In the study we pursue an important path of pain in Andalusian poetry. It is the path of inclusiveness in the expression of individual feeling; Some romantic trends can be observed in Andalusian poetic expressions about the pain of their owners, and this is what the current study wants to research. It relied on poetic evidence according to the ontological basis referred to, and ran between it and the romantic emotional sphere, which is based on an important basis, which is the greatness of the creative self, and accordingly, what comes from it is great, and we do not feel it even if it is pain, sadness, and well-known feelings of pain.

Key words: Pain, romance, Andalusian poetry, The fifth century AH, The sixth century AH.

*Professor, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen university Lattakia, Syria.
**Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen university Lattakia, Syria.
***Doctoral student, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria

مقدّمة:

الألَمُ لغةً هو الوجع . ورد في لسان العرب "الأَلَمُ: الوَجَعُ. وقد أَلِمَ يَأْلَمُ أَلَماً. وقولهم: أَلِمْتَ بطنَك كقولهم: رَشِدْتَ أَمْرَكَ، أي أَلِمَ بَطْنُكَ ورَشِدَ أَمْرُكَ. والتَّأَلُّمُ: التَوَجُّعُ. والإيلامُ: الإيجاعُ. والأَليمُ: الموجِعُ، مثل السميع بمعنى المُسْمِع".[1]

أمَّا عند الفلاسفة فالألم هو " حالة نفسيَّة يصعب تعريفها، وتتميّز بإحساس ما دي أو معنوي بعدم الراحة، أو بالضيق أو بالمضض ".[2]

وقد مجَّدت بعض العقائد الفلسفيَّة الألم مثل (البوذية) التي جعلته مقولة مركزيَّة، وأكَّدت أنَّه يغلب على كلِّ وجود، ولآ سبيل إلى الفوز بفناء الألم إلَّا بفناء الحياة[3]، ويؤكِّد (نيتشه) قوَّة الألم ويربطه بالصراع بين الخير والشر.

اهتمَّ الرومانسيون بالألم، ورأوا أنَّه مبدأ الإبداع، ومصدره ووصفوه بالألم العبقري، وشاع بينهم ما أسموه بداء العصر؛ الذي يتكوَّن من الكآبة، والحزن، والتألم، والشكوى، والأساس في ذلك هو الإسراف في الاهتمام بالذات المبدعة، وأحلامها، وما يثور فيها من مشاعر تتَّسم لدى الرومانتيكيين بالحزن والكآبة والتشاؤم والتأمل حتَّى صار الرومانسيون يجدون في شقائهم نعيماً، وفي أشعارهم عزاء. [4]

الألم أساس من أساسات القول الشعري، وتجسد هذا في الشعر الأندلسي عبر خطوطٍ نفسية متعددة، ومختلفة يمكن استشفاف وجود توجُّهات أقرب إلى الرومانسية منها إلى الجهد العاطفي التقليدي الذي نلمحه عادة حين قراءتنا الشعر العربي، ويمكن ملاحظة أنَّ هذه التوجهات تساير سياقاً أقرب إلى الشموليَّة التي هي نتيجة طبيعيَّة للفيض العاطفي، ويمكن للألم حينها أن يتحوَّل إلى قضية عامة ؛ بمعنى أن تصبح قضية الفرد المتألِّم قضيَّة المجتمع عموماً، وبذلك يحاول الفرد تعميم ألمه بوصفه الألم الأعظم الذي يجب الالتفات إليه، والاهتمام به.

إشكالية البحث وأهميته :

يمكن القول: إنَّ الدراسة الجارية حلقة من حلقات البحث المتواصل عن خلفيَّات القول الشعري في الأندلس؛ بمعنى أنَّنا يجوز لنا وضعها ضمن سياق المحاولات الحثيثة للتوصل إلى مسارات جديدة في المجالات النفسية التي ينتمي إليها الشعر الأندلسي، ويعدُّ الألم موضوعاً أساساً في الشعر عموماً، والشعر الأندلسي الذي تنوَّعت أساساته العاطفية بشكل نلاحظ فيه وجود توجهات جديدة يجوز وضعها في سياق الرومانسية، ومن هنا يكتسب البحث أهميته؛ كونه يفتح نوافذ نقدية جديدة في هذا الإطار.

أهداف البحث:

تهدف الدراسة إلى محاولة الإجابة عن سؤال مهمٍ حول الشعر الأندلسي، وهذا السؤال يدور في فلك إمكانية إعادة فهم بعض الموضوعات الشعرية في (الأندلس) من وجهة نظر جديدة، ومنها الألم الذي يفيض بالإشارات النفسية

---

[1]) ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي . لسان العرب. ط3، دار صادر، بيروت، 1993م، ما دة ألم .

[2]) المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربي، المطابع الأميرية ببولاق، 1979م، ص 2 .

[3]) ينظر : طرابيشي، جورج . معجم الفلاسفة . ط1، دار الطليعة، بيروت، 1987م، ص 198 .

[4]) مندور، محمد . الأدب ومذاهبه . د.ط، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الجيزة، د.ت، ص 67.

المتنوعة؛ إذ هل يمكننا وضع مسار هذا الموضوع وجدانيًّاً ضمن مجال الرومانسية بوصفها المذهب الذي كان من الممكن أن ينمو في (الأندلس) لو استمرَّت الظروف المؤاتية؟

منهج البحث :

اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي الذي يعين الباحث على الاستقلال بالشاهد المناسب بغية الوصول للنتائج المتناغمة مع مجموع الفهم الواحد والناظم للشواهد الشعرية؛ إذ يتابع الباحث الشواهد بالتفسير، والربط، والمقارنة ليصل إلى النتيجة المُرضية.

المناقشة:

يقوم الألمُ على وجود التجربة؛ فلا ألم من دون تجربةٍ إنسانية، ومحاولةٍ لمعرفة موقع الذات من الوجود، والألم هو الذي يجعلنا نعرف قيمة الأشياء؛ فهو الموقظُ للإحساس البشري، والباعث على التأمل والتفكير، فيعيد تشكيلنا من جديد، ويضعنا في مواجهة أنفسنا وإمكانياتها لمعرفة الأقصى الذي يمكنها الولوج إليه.

إنَّ المتألِّم يصرخ، وينوح، ويبكي، أمَّا الشاعر فيعبِّر عن ألمه، وصراخه، ووجده، ونواحه بشعره، وليس التألُّم في الشعر علامة على الانهيار، أو الاستسلام دائماً؛ فكثيراً ما يكون التألُّم شاهداً على قيام حركةِ تحرُّرٍ فعليٍّ، أو يقظةٍ روحيةٍ يتم عن طريقها استنهاض القوى الكامنة في النفس.

تقوم الرؤية الشعرية الرومانسية على الربط الوثيق بين الذات، وما ينضح عنها من مشاعر، وحقيقة الشعر وجوهره؛ وهو ما أشار إليه(نوفاليس) بقوله: " الشعر تمثيلٌ للشعور، ولعالم النفس في مجموعه، وكلَّما كان الشعر فرديًّاً، وذا طابعٍ محلّيٍّ، وصبغةٍ حاضرة ذاتية كان أقرب إلى صميم الشعر ".[1]

هذا الطغيان للأنا عند الرومانسيين أدَّى إلى عدم الرضا بكلِّ ما هو موجود، وهذا بدوره أدَّى إلى قلقٍ دائمٍ، وتوتُّرٍ بين تمادي العاطفة وإقبالها على بعض الأمور، وتقلصها، وترددها، وضعف شغفها ببعض الأمور الأخرى، وفي ذلك عمَّ جوٌّ من الحزن غير المُسوَّغ في أشعارهم ؛ فهم يبحثون عن المثالية في الوجود، والجمال المطلق في الحياة، ثمَّ ما يلبث أن يتحول هذا الحزن إلى ألمٍ مريرٍ سببه الجفوة بين الموجود الحقيقة الذي يضع مجموعة من القواعد التي يمشي عليها المجتمع، وتسير وفقه الحياة بشكل عام، والمثال المتخيَّل الذي يسعون إليه، ويعبِّر الناقد (محمد غنيمي هلال) عن ذلك بقوله: " فلم يكن الرومانتيكي بالمرح، ولآ بالمتفائل، وإنَّما كان فريسة ألم مرير بسبب الجفوة بينه وبين مجتمع لا يقدِّر ما فيه من نبل الإحساس، ونتيجة انهيار آماله الواسعة، وتعذر ظفره بالمثال المنشود، ولذا كان الحزن طابع الرومانتيكيين، وهو حزن يدل على عزلتهم الروحية، ونفورهم من أدواء المجتمع؛ كما يدل على رهف الشعور إلى درجة لا تستقر نفوسهم فيها على قرار، بل تظل نهب اضطراب دائم .."[2]

يعدُّ الإحباطُ الحزنَ غير القابل للتفسير، والأسى عناصر تجلَّت في بصيرة الفرد اتجاه العالم، وتُعَدُّ هذه العناصر منبع النظرة التشاؤمية أو ما يسمَّى (وهن العالم)؛ فلا يمكن للحقيقة إشباع متطلبات الفرد، وهذا الإحساس التشاؤمي قائم على مبدأ أنَّه لا يوجد علاج للشر في العالم، ومن هنا نفهم حقيقة الحس المأساوي في الشعر؛ فهو

[1]) هلال، محمد غنيمي . الرومانتيكية . د.ط، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الجيزة ، د. ت، ص 47.

[2]) هلال، محمد غنيمي . الرومانتيكية . ص 50 .

تعبير عن مكنونات النفس التي تترجَّح بين مشاعر الألم، وأحاسيس الوجع الكبير، " فهو عاطفة إنسانية متأسِّية أدرك آثارها الإنسان منذ أن أدرك العلاقة بينه وبين أخيه، فقد جرَّب آلامها، وعاش صورها المختلفة ليجد نفسه في أحضانه كملاذ للتعبير عن العجز في تحقيق ما يرضيه من رغبات وأهواء، ويحاول التنفيس بوسائل عدَّ أدناها البكاء وآياته الدموع، وأقصاها محبرة الكلمات وأقلام الآهات التي يحملها شعراء العبارات في صحاري المأساة؛ لا نَّهم الأقدر على التعبير عن هذا الألم الدفين ...".[1]

لقد فاض الشعر العربي في المشرق، والأندلس بمثل هذا النوع من الألم الشمولي الذي يلخِّص تجربة الحياة الفردية بالألم المصاحب، وليس الوجع الآني، ومسار الحديث يقوم على ترتيب تلك الخطوط المشتركة من الألم في شواهد الشعر الأندلسي مما نجد فيه توجهات رومانتيكية تتَّسق لتشير إلى اتجاه غير منمَّط في التعبير عن الألم في الشعر الأندلسي؛ إذ تقوم مفردات الألم عموماً على مجموعة من المساحات المفهومية، والمجالات التعبيرية، والموضوعية يقف الحنين في مقدِّمتها، ومنه الحنين إلى المكان أو الزمان، كذلك شعر التعبير عن الإحباط، واليأس بسبب المرض أو العمر أو الفقر أو الفشل في الحب، أو غيره، ويسير الحسُّ المأساويُّ معَ هذه الموضوعات جنباً إلى جنب.

وقد سار الشعر الأندلسي في هذه المسارات، وتنقَّل بين تلك المعاني والمساحات التعبيرية، والموضوعات، حتَّى إننا نجد شواهد واضحة في هذا المجال، ومن ذلك ما عبَّر فيه الشاعر الأندلسي عن قلقه من الزمان، والحياة، والوجود؛ فهذا (أبو إسحق الألبيري) يتحدَّث عن أثر الزمان فيه بما يحمله من تجارب الحياة، ونوائب الدَّهر، وتنوُّع آثار الاحتكاك بالناس، يقول:[2] البحر الوافر

تفتُّ فؤادَكَ الأيَّامُ فتًّا ... وتنحَتُ جسمَكَ الساعاتُ نحتا

وتدعوك المنونُ دعاءَ صدقٍ ... ألا يا صاحِ أنتَ أريدُ أنتا

أراكَ تحبُّ عِرساً ذاتَ خدرٍ ... أبتَّ طلاقَها الأكياسُ بتَّا

تنام الدَّهرَ ويحكَ في غطيطٍ ... بها حتَّى إذا متَّ انتبهْتا

ويبثُّ الشاعر (ابن حمديس) هذه الشكوى المقنَّعة من الوجود، وحركته الروتينية المحبطة للإنسان في جوٍّ مأساويّ قائلاً :[3]البحر البسيط

إنَّ الليالِيَ والأيَّامَ يدركها ... شيبٌ ويعقبُها مِنْ بعده هلكُ

فشيبُ ليلِكَ من إصباحهِ يققٌ ... وشيبُ يومِكَ منْ إمسائه حلكُ

والعيشُ والموتُ بين الخلقِ في شغلٍ ... حتَّى يسكَّنَ من تحريكه الفلكُ

---

[1]) بوذينة، حليمة . الحس المأساوي من خلال صرخة في وجه الموت لعبابسة حسان . رسالة ما جستير، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية جامعة محمد خيضر، سكرة، الجزائر، 2019 م ، من مقدمة الرسالة ص أ .

[2]) الألبيري، أبو إسحق. ديوان ابي إسحق الألبيري، تحقيق وشرح: محمد رضوان الداية. ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت 1991م، ص 24 .

[3]) ابن حمديس، عبد الجبار. ديوان ابن حمديس، تصحيح وتقديم:إحسان عباس. دار صادر، بيروت، 1960م، ص347.

ويدقِّقُ الشاعر (ابن حمديس) في هذه المسألة الوجودية حين يشيع همَّه، ويبثُّ شكواه من الزمن قائلاً : [1]البحر الكامل

مَنْ أستعينُ به على فرطِ الأسى؟ فأنا الذي بجنايتي عوديتُ
كنتُ امرأً لم ألقَ فيه رزيَّةً حتَّى سُلِبْتُ شبيبتي فرزيتُ
همّي كسقطِ القَبْسِ لكنْ طعمُه عمرٌ إذا أفناه فيَّ فنيتُ

وتحتشد الهموم، وتتضاعف الأحزان لدى الشاعر الأندلسي حين يعيش تلك السوداويَّة النفسية المتمثلة في السواد الكوني الليلي؛ فهذا (ابن زيدون) يشبه جفوة الحبيب، ومرارتها بمرارة الكواكب حين يحجبها الليل بسبب ظلامه الحالك، فلا يسمح لنور، أو لضوء بالاقتراب، يقول : [2]البحر الطويل

بنيتَ فلا تهدمْ ورشتَ فلا تبرِ وأمرضتَ حسَّادي وحاشاكَ أن تبري
أرى نبوةً لم أدرِ سرَّ اعتراضها وقد كان يجلو عارض الهمِّ أن أدري
جفاءٌ هو الليلُ ادلهمَّ ظلامه فلا كوكبٌ للعذر في أفقه يسري
هبِ العزلَ أضحى للولايةِ غايةً فما غايةُ الموفي من الظلِّ أن يكري

يمكن تبسيط معنى الحزن في الرومانتيكية بأنَّه الشعور الذي يعترينا حين يحدث لنا ضدُّ الذي نريده، وهذا الشعور هو الذي يجعلنا نعيش تحت وطأة التشاؤمية؛ فالإحباط الذي يعيشه الشاعر الرومانتيكي من الحياة، وقلقه المستمر من الوجود والمستقبل هو الذي يحدوه إلى المقتِ الكامل للمستقبل، واليأس البائس منه، وهذا ما يجعل الشاعر يعيش في استسلام تامٍّ للإحباط واليأس، ويقارب الشاعر الفرنسي الرومانتيكي (فيكتور هوغو) في روايته(عمّال البحر) هذا قائلاً : " إن الأرواح القوية تعزل في بعض الأوقات تحت بعض ضربات البؤس، ولليأس درجاته التصاعدية، فمن الإنهاك يصعد المرء إلى الانهيار، ومن الانهيار إلى الحزن العميق، ومن الحزن العميق إلى الضعف، الضعف الذي يذوب فيه الألم في فرحةٍ قاتمة .."[3].

العزل المشار إليه هو ضربٌ من نقيض الرجاء؛ فاليأس في اللغة هو" القنوط وانقطاع الرجاء "[4]؛ كما أشار إليه (ابن منظور) في (لسان العرب)، وهو" قطع الأمل عن الشيء "[5]؛ كما أشار إليه (الزبيدي) في (تاج العروس)، وعليه فإن اليأس يجمع الإحساس بالخوف، والقلق، والضجر، فيستسلم الإنسان لتعاسته، وهذا ما يمثله الشاعر (ابن الحداد) في أبياته التي يحزن فيها على حياته التي لم يحقق فيها مراده، فيبدي رأيه في الموت من باب الانعزال النفسي عن الحياة لا من باب الإيمان به بوصفه حقيقة قاعديَّة في الوجود، يقول :[6] البحر الكامل

هيهاتُ ما تغني القنابلُ والقنا والمشرفيَّةُ في ملاقاة المنى

---

[1]) المصدر نفسه، ص 73 .

[2]) ابن زيدون، أحمد بن عبد الله . ديوان ابن زيدون، شرح: يوسف فرحات. ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1994م، ص 105 .

[3]) هوغو، فيكتور. عمّال البحر، ترجمة: رمضان لا وند . دار العلم للملايين، بيروت، 2007م، ص 346.

[4]) ابن منظور، جمال الدين. لسان العرب، ما دة يأس .

[5]) الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس. ط2، دار صادر، بيروت، د. ت، ما دة يأس .

[6]) ابن الحداد، أبو عبد الله محمد بن أحمد. ديوان ابن الحداد، تحقيق: يوسف علي طويل. ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م، ص 279 .

فعلام تساق العتاق وإن جرى وجرينَ جاهدةً ونيْنَ وما ونى
وعلام تجتاب الدلاص فإنَّها ليست موانع سموه أن تطعنا

ويتابع (المعتمد بن عباد) في هذا المسار الاستسلامي الانعزالي عن مقاومة الحركة الوجودية الخارجية حتَّى يسأل سؤال المتيقِّن من الجواب عن المفاضلة بين الموت والحياة، فيقول:[1]البحر الوافر

أليس الموت أروح من حياةٍ يطول على الشقيِّ بها الشقاءُ
فمن يكُ من هواه لقاء حبٍّ فإنَّ هواي منْ حتفي اللقاءُ

ويؤكِّد (ابن اللبانة الداني) هذه النظرة بقوله:[2] البحر الوافر

*رماني الدهرُ مِنْ كلِّ النواحي فأنبتَ في مقاتليَ النبالا
وصيَّرني غريباً في مكانٍ به الغرباء تكتسبُ العيالا
وثأريَ ممكنٌ عند الليالي ولكنْ قد تعذَّر أنْ يُنالا

إنَّ هذه الحركة الراجعة إلى الخلف، أو الماضي الجميل وفق رؤية الشاعر –كما لحظنا في بعض الشواهد – تشير إلى توجُّهٍ رومانتيكيٍّ يقوم في أسِّه على فكرة إنشاء المثال في الماضي وليس في المستقبل، ولا يماشي هذا الحديث حديث المثال القديم الواجب اتباعه في الاتباعية؛ فالحركة الارتجاعية إلى الماضي في التوجهين تتوازى في أمرٍ واحد هو اعتبار الماضي أجمل من الحاضر ؛ غير أنَّ الرومانسية لا تعير انتباهاً إلى المستقبل في المسار النفسي؛ بمعنى أنَّ بناء المستقبل أمر لا يعنيها، وهذا ما لمسناه في الشواهد السابقة التي أبدت تشاؤميَّة واضحة تجاه المستقبل؛ فبناء المستقبل وفق القواعد الصارمة المستعارة من الماضي –كما تدعو الاتباعية – هو أمر لا يعني الرومانسيين البتَّة ؛ فالموقف الذي يشير إليه الشاهد الشعري المقارب للتوجه الرومانسي اتجاه الماضي هو هروب أكثر منه عودة تبادلية، وهو هروب نابع من الحدس الفني الذي انتبه إلى عدم وجود مساحة للتغيير في المجتمع، وفي الحياة، فيدعو صاحبه إلى الاستسلام والهروب في نرجسيَّة واضحة تقوم على أنَّ هذا الحدس أكَّد بما لا يدع مجالاً للشك أنَّ العقل لا يمكن أن يفهم هذه الحتميَّة[3]، ومن المعلوم أنَّ زمن السعادة قصير عند الرومانتيكيين، وسرعان ما يحلُّ محلَّه زمن العذاب، وزمن الألم بوصفه من مستلزمات الحب، ولكن إذا تحوَّل الحب إلى قطيعة، وذاق الحبيب مرَّ الفراق، وانقطع الأمل، والرجاء بالعودة إلى الألفة والوُد، انطوى على ذاته " يتذكر الماضي، ويحنُّ إليه، فيما يشبه العزلة"[4]، وإنَّ اتجاهات(ابن زيدون) الشعرية تقارب هذا التوجه؛ فهو يوجِّه خطابه إلى محبوبته (ولَّادة) مشيراً إلى الحال الجديدة التي سببها فراقها، وإلى استعذابه الموت إذا كان يحمل لقاء (ولَّادة) قائلاً :[5] البحر البسيط

---

[1]) ابن عباد، المعتمد . ديوان المعتمد بن عباد، تحقيق: رضا الحبيب السويس. الدار التونسية للنشر، تونس، 1975م، ص 90 .

[2]) ابن اللبانة، أبو بكر. ديوان ابن اللبانة الداني، تحقيق: محمد مجيد السعيد. ط2، دار الراية،عمان، 2008م، ص 108.

[3]) يعرِّف الناقد الألماني الشهير(شليغل) الرومانسية قائلاً : ((إنها الفن الذي يكشف في الصور، وبوساطة الحدس الفني الأفكار المطلقة الكامنة في أساس الواقع، والقادر بشكل أعمق من العقل الإنساني المحدودعلى اكتشاف ومعرفة العالم المحيط بنا)) .الأيوبي، ياسين . مذاهب الأدب معالم وانعكاسات الكلاسيكية، الرومانتيكية، الواقعية . ط2، دار العلم، بيروت، 1984م، ص 192.

[4]) بطرس، أنطونيوس . الأدب، تعريفه، أنواعه، مذاهبه . ط1، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، 2013م، ص 305 .

[5]) ابن زيدون، أبو الوليد أحمد بن عبد الله . ديوان ابن زيدون . ص 299 .

بنْتُمْ وبنَّا فما ابتلَّت جوانحُنا شوقاً إليكم ولا جفَّت مآقينا
نكادُ حينَ تناجيكم ضمائرُنا يقضي علينا الأسى لولا تأسِّينا
حالتْ لفقدكمُ أيَّامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً لياليا
إن كان قد عزَّ في الدنيا اللقاءُ بكم في موقفِ الحشرِ نلقاكم وتلقونا

ويجعل الشاعر ألمه شموليّاً إلى درجة تحوّل قلبه من الحالة الحركية التي تدل على الحياة إلى الحالة السكونية الجامدة الدالة على الموت، وهو الموت حبّاً، يقول (ابن زيدون): [1] البحر الوافر

فديتُكَ إنني قد ذاب قلبي من الشكوى إلى قلب جمادِ

ويقول : [2] البحر البسيط

ما سرَّح الدمع من عيني وأطلقه إلَّا اعتياد أسى في القلبِ مسجونِ
صبراً لعلَّ الذي بالبعد أمرضني بالقربِ يوماً يداويني ويشفيني

ويرى الرومانتيكي في معاني الحب السمو المطلق؛ فهي الأشد تعبيراً عن نقاء الذات وحقوقها، وعلوِّ منزلتها، لذا نجد أنَّ الرومانتيكي يرى الحب فضيلة، ويعيشه بناء على هذا التوجه النفسي؛ إذ لم يعد الحب عاطفة جارفة، بل صار فضيلة[3]، ومن هنا يمكن أن نفهم مسار الانجراف التعبيري عن كل ما يمكن للنفس أن تعيشه في بعض شواهد الحب في الشعر الأندلسي، ومن هنا يمكن أن نفهم تعاظم دور المحبوبة إلى درجة الجمال المطلق، والمبارك، ومن هنا – أيضاً – يمكن أن نفهم الاستسلام التام لصيرورة العلاقة القائمة على مأساويَّة الحدث، واستحضار الألم الشمولي، كما لمسنا في بعض أبيات (ابن زيدون)، كذلك نجد في أبيات الشاعر (ابن الحداد) التي يقول فيها:[4] البحر البسيط

يا غائباً خطرات القلب محضره الصبر بعدك شيء لستُ أقدره
تركتَ قلبي وأشواقي تفطِّره ودمع عيني وأحداقي تحدِّره
فالعين دونك لا تحلو بلذَّتها والدهر بعدك لا يصفو تكدُّره

ويؤكِّد (ابن ما رتين) أن تأثير آلام الحب الشمولية يمتد على مظاهر الانفعال نفسه مسوِّغاً يأسه قائلاً : [5] البحر الخفيف

كيف لي بعدَكم بطبيبِ الهجوعِ وجفوني مملوءةٌ بدموعي
كلُّ شيء يئسْتُ منه إذا ما بنْتُم غيرَ عبرتي وولوعي

ويضفي (ابن حمديس) الطابع الإنساني على الدمع قائلاً :[6] البحر الكامل

---

[1]) ابن زيدون، أبو الوليد . ديوان ابن زيدون . ص 68 .
[2]) المصدر نفسه، ص 307 .
[3]) هلال، محمد غنيمي .الرومانتيكية . ص 168 .
[4]) ابن الحداد، أبو عبد الله . ديوان ابن الحداد . ص 209 .
[5]) المغربي، ابن سعيد . المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف. ط3، دار المعارف، القاهرة، 1955م، ج1، ص 248 .
[6]) ابن حمديس، عبد الجبار . ديوان ابن حمديس . ص 72 .

الدمعُ ينطق واللسان صموتُ فانظر إلى الحركاتِ كيف تموتُ
مازال يظهرُ كلَّ يومٍ بي ضنى فلذاك عن عين الحِمامِ خفيتُ
صبٌّ يطالب في صبابةِ نفسه جسداً بمديةَ سقمُه منحوتُ

وفي المجال الرومانتيكي يصبح الحب لذات الحب، وعليه فإننا نجد تقديساً للمرأة لدى الشعراء الرومانتيكيين " فقد أدَّى السمو بالعواطف والصدق فيها إلى نوع من تقديس المرأة والإشادة بها، والخضوع لسلطانها . ولم يكن خضوعهم آية خنوع وضعف ؛ بل كان مصدره صدق العاطفة "[1]، وفي هذا السياق يستعذب الشاعر ألم الحب لأنَّه هدفٌ بذاته، وربَّما قارب (ابن الحداد) هذا التوجه في قوله إلى محبوبته (نويرة) : [2] البحر الطويل

ومَنْ جرحتْه مقلتاكِ نويرةٌ فليس يرجِّي من جراح الأسى أسوا
أرى كل ذي سلوى رآك متيَّماً فما أكثر البلوى بحسنك والشكوى
ونارُ الأسى تخبو بقرب نويرة ومن لي بأن أوي إلى جنَّة المأوى

ويؤكد(ابن الحداد) استمراره على مذهبه في الحب قائلاً :[3] البحر الطويل

فيا عجباً أن ظلَّ قلبي مؤمناً بشرع غرامٍ ظلَّ بالوصل كافرا
فأنتِ ضميرٌ ليس يعرف كُنْهَهُ فلِمْ صيَّروا في المعرفات الضمائرا؟

وشبيه بذلك قول (ابن حمديس) :[4] البحر الكامل

صبٌّ يذوب إلى لقاء مذيبه يستعذب الآلام من تعذيبه

وقوله :[5] البحر الكامل

بك يا صبور القلب هام جزوعه أو كل شيء من هواك يروعه
فإذا وصلت خشيت منك قطيعة فالعيش أنت وصوله وقطوعه

ويأخذ الألم منحى يحيد به عن الاشتياق للمحبوب أو الاشتياق للشباب، والحنين إليه حين يشعر الشاعر بانفصاله التام عن المجتمع بسبب تنكُّر الأصدقاء، وكذبهم ممَّا يعزِّز لديه النزعة الفردية؛ وقد عبَّر (أبو الصلت) عن هذا بقوله :[6]البحر البسيط

مارستُ دهري وجرَّبْتُ الأنام فلم أحمدهم قطُّ في جدٍّ وفي لعبِ
وكم تمنَّيْتُ أن ألقى به أحداً يسلي من الهمّ أو يعدي على النّوبِ
فما وجدتُ سوى قومٍ إذا صدقوا كانتْ مواعيدهم كالآلِ في الكذبِ

---

[1]) غنيمي، محمد هلال . الرومانتيكية . ص 170 .
[2]) ابن الحداد، أبو عبد الله . ديوان ابن الحداد . ص 305 .
[3]) ابن الحداد، ديوان ابن الحداد، ص 215
[4]) ابن حمديس، ديوان ابن حمديس، ص 10 .
[5]) المصدر نفسه، ص 313 .
[6]) أبو الصلت، أمية بن عبد العزيز السدَّاني . ديوان أبو الصلت، تحقيق: محمد المرزوقي . دار الكتب الشرقية، تونس، 1974م، ص 59 .

كأنَّ الشاعر هنا يجيب عن سائلٍ ما حول عزلته، ومجانبته الاختلاط مع الناس، فيجيب بنزعة فردية تشاؤمية قائمة على خبرة التجربة برأيه، وقد عمَّم نظرته بناء على ألمه الشمولي؛ إذ لا يمكن أن يكون الذين التقاهم يمثِّلون البشرية كلَّها، وإنَّ قوله: " كم تمنَّيتُ" يؤكِّد تقصيره في السعي.

إنَّ الأنا الرومانسية متقلِّبة، ولا نهائيَّة، وهي بذلك"عصيَّةٌ على الاختزال، كماهي عصية على التنميط؛ أي منفلتة من الحتمية التجريبية"[1]، والأدب الرومانسي ،عموماً، هو أدب ذاتي تأثري يلقي الضوء على أهمية الإنسان بوصفه هدفاً قائماً بذاته، وهنا نجد أنَّ الإنسان الرومانتيكي هو إنسان لا يتقيد بالتقاليد الاجتماعية السائدة إذا تجمدت وتحجرت واصطدمت بالمعاني الإنسانية؛ لأنَّه يمجِّد العواطف والمشاعر والإحساسات، وباسمها يتوق إلى المثالية، وعليه يمكن فهم بعض اللمحات الرومانتيكية المتماهية مع هذا التوجه في بعض أبيات الشعر الأندلسي؛ إذ أدَّى بحث (أبي الصلت) عن المثالية إلى هذا الاصطدام بالواقع الذي جعله بدوره لا يماشي النظرة الاجتماعية، والقانون المنطقي الذي لا يحبذ اعتزال الناس والعيش بالبرج العاجي المبني على نزعة فردية تلصق الجميل بالمنتوج الفردي، في ذلك نفهم قوله:

فما مقلِّمُ أظفاري سوى قلمي ولا كتائب أعدائي سوى كتبي

وقوله :[2] البحر البسيط

حسبي انحرافي عن الورى خلقاً وحسب عيني بفقدهم قرَّه

ويؤكِّد ذلك (أبو الفضل محمد عبد المنعم الغسَّاني) بقوله :[3] البحر الطويل

خبرْتُ بني عصري على البسط وكاشفتهم كشف الطبائع بالنبض

فأنتجَ لي فيهم قياسي تخلِّياً عن الكل إذ هم آفة الوقتِ والعرضِ

ألازمُ كسرَ البيتِ خلواً وإن يكن خروجٌ ففرداً ملصق الطرف بالأرضِ

أجانبهم سلْماً ليسلم جانبي وليس لحقدٍ في النفوسِ ولا بُغضِ

وقد يتطور القلق الوجودي من القلق اتجاه الأشخاص والنفور منهم، واعتزالهم إلى القلق اتجاه الأمكنة والنفور منها، يقول(الأعمى التطيلي):[4] البحر البسيط

مللتُ حمص وملَّتني فلو نطقت كما نطقْتُ تلاحينا على قدرِ

وسوَّلت لي نفسي أن أفارقها والماءُ في المُزن أصفى منه في الغدرِ

ونجد شواهد كثيرة في الشعر الأندلسي تعبِّر عن ميل أصحابها إلى العزلة عن الناس والأمكنة، وتتضح بالحس التشاؤمي، والإحباط من الصيرورة المنطقية للحياة، وتدلل على قلق الشاعر الوجودي، وألمه الذي أدَّى به في

[1]) ابن خليفة، مشري . الشعرية العربية مرجعياتها وإبدالاتها النصية. ط1، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2011م، ص119.

[2]) أبو الصلت، أمية بن عبد العزيز السَّدَّاني . ديوان أبي الصلت، جمع: بشير بموت. ط1، المطبعة الوطنية، بيروت، 1934م، ص 93 .

[3]) المقري، شهب الدين أحمد بن محمد . نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس. ط1، دار صادر، بيروت، 1968م، ج2، ص 636.

[4]) التطيلي، الأعمى . ديوان الأعمى التطيلي، تحقيق: إحسان عباس. دار صادر، بيروت، 1963م، ص 76 – 77 .

نهاية المطاف إلى الهروب إلى الطبيعة بوصفها الملاذ الآمن؛ ففيها تنطلق ذاته المبدعة، وتسرف في خيالاتها، ومن ذلك "أبو عيسى بن لبون) الذي يعبّر عن هذا الاتجاه بدقَّة بكل أبعاده في قوله :[1] البحر الطويل

ذروني أجبْ شرقَ البلادِ وغربَها ... لا شفي نفسي أو أموت بدائي

فلست ككلبِ السوء يرضيه مربضٌ ... وعظمٌ ولكنّي عقابُ سماءِ

لقد هرب الرومانسيون إلى الطبيعة عموماً، وناجوها بوصفها أمَّاً رؤوماً، وتغنُّوا بجمالها، وتوالجوا معها إلى درجة الحلول الفني الخالص، وقد عبَّر كثير من الشعراء الأندلسيين عن آلامهم في أوساط الطبيعة، وأشهدوها على أحزانهم ومآسيهم، يقول (المعتمد بن عباد) :[2] البحر الطويل

بكتْ أنْ رأتْ إلفين ضمَّهما وكرُ ... مساءً وقد أخنى على إلفها الدهرُ

بكتْ، لم تُرِقْ دمعاً، وأسبلَتْ عبرةً ... يقصِّر عنها القطرُ مهما همى القطرُ

وناحت فباحت واستراحت بسرّها ... وما نطقتْ حرفاً يبوحُ به سرُّ

فما لي لا أبكي أمِ القلبُ صخرةٌ ... وكم صخرةٍ في الأرض يجري بها نهرُ

فقلْ للنجوم الزهرِ تبكيهما معي ... لمثلِها فلْتحزنِ الأنجمُ الزهرُ

فالحزن القليل الذي تبديه الحمامة للشاعر يشعره بالسلوان المشارك؛ أي إنَّه يوجد في الدنيا من يسمع لشكوى نفسه الداخلية، ومثله قول(ابن خفاجة) مخاطباً القمر مازجاً بين المعاني التي يمكن استنباطها من القمر، والمعاني الوجودية القلقة التي تعتمل في داخله:[3] البحر البسيط

لقد أصختُ إلى نجواك مِنْ قمرِ ... وبتُّ أدلج بين الوعي والنظرِ

وقد ملأتُ سواد العين من وضحٍ ... فقرّط السَّمعَ قرط الأنسِ من سمرِ

تمرُّ منْ ناقصٍ حوراً ومكتملٍ ... كوراً ومنْ مرتقٍ طوراً ومنحدرِ

والناسُ من معرضٍ يلهو وملتفتٍ ... يرعى ومن ذاهلٍ ينسى ومدَّكرِ

فإن بكيتُ وقد يبكي الخليلُ فعن ... شجوٍ يفجّرُ عين الماء في الحجرِ

نلاحظ هنا فعل النجوى المتبادل بين القمر والشاعر؛ إذ تحوَّل القمر إلى صديقٍ، وتمثَّل في موضوع قائمٍ بذاته، ينضح بالتساؤلات، والخبرات الاجتماعيَّة، ويشارك الشاعر فكرة الوجود، بل ويبكي معه .

وتهيج الموجودات الطبيعية مع (ابن زيدون) حين يستذكر محبوبته، وتنداح آلامه وأشواقه في جواه الذي يكتسح كيانه فيقول :[4] البحر البسيط

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا ... والأفقُ طلقٌ ووجهُ الأرضِ قد راقا

---

[1]) الشنتريني، أبو الحسن علي بن بسام. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس. ط1، الدار العربية للكتاب، ليبيا– تونس، 1978م، ج5، ص 108 .

[2]) ابن عباد، المعتمد . ديوان المعتمد بن عباد . ص 68 – 69 .

[3]) ابن خفاجة. ديوان ابن خفاجة، تحقيق:السيد مصطفى غازي. منشأ دار المعارف، مصر، 1960م، ص 111 – 112.

[4]) ابن زيدون . ديوان ابن زيدون . ص 194 – 195 .

وللنسيمِ اعتلالٌ في أصائلهِ كأنَّه رقَّ لي فاعتلَّ إشفاقا
يومٌ كأيَّام لذَّاتٍ لنا انصرمتْ بتنا لها حين نام الدَّهرُ سرَّاقا
نلهو بما يستميلُ العينَ منْ زهرٍ جال النَّدى فيه حتى ما ل أعناقا
كأنَّ أعْيُنَهُ إذ عاينتْ أرقي بكتْ لما بي فجال الدَّمعُ رقراقا
لو شاء حملي نسيم الصبح حين سرى وفاكمُ بفتى أضناه ما لاقى

يشارك الشاعر سابقيه مشاركة الطبيعة آلام اشتياقه وجواه؛ فالنسيم معتل الحركة إشفاقاً على الشاعر، والزهر بكى لما بالشاعر من حزن وأسى، وكلُّ موجودٍ جزءٍ في الزهراء يذكِره بالأيَّام الخاليات التي تزيد السعادة التي كانت فيها من آلامه الآن؛ لذلك نجده يبثُّ لولَّادة قائلاً : إنَّ نسيم الصبح إذا حمله إليها سيأتي بفتى مضنى كسير.

نقول: إنَّه يمكن للألم أن يمتلك وظيفة بقائيَّة وتكيُّفيَّة للكائن الذي لا يتعلَّم الحياة؛ فاقتطاف الوردة ألذُّ حين نجتاز الأشواك من حولها أو نتألَّم حين قطفها، وعليه فالألم خبرة بشريَّة، ولو انعدمت الآلام والرذائل والآثام ما كانت الفضائل العالية ولآ الأعمال النبيلة، ولآ المواقف الوجوديَّة العميقة التي تحدَّث عنها الرومانسيون، ولو انعدم القبح لا نعدم الجمال، ولولا الأشقياء ما كان السُّعداء، وهكذا .

خاتمة

الألم رفيق الإبداع، وهو يميِّز بين الإنسان العادي، والإنسان المبدع الذي تتَّسم أحزانه بطبيعة خاصَّة، ويستطيع ترجمة أوجاعه ومآسيه الداخلية إلى ما دَّة أدبيَّة، كذلك يعيش المبدع أحزان الآخرين، ويدمجها بأحزانه حتَّى قيل: إنَّ بعض الشعراء يكتبون قصائدهم بدمائهم، وقيل: إنَّ الآلام العظيمة تولِّد أعمالاً عظيمة، وقد قاربت بعض الخطوط النفسية، والمباني العاطفية في قصائد أندلسية كثيرة هذا التوجه القائم على الوحدة الرومانسية الأهم، وهي فيض الذات، وتجسَّد فيض الذات في الشعر الأندلسي عبر استمرارها في معالجة الوجود بوصفه قضية النَّفس القلقة، ولم تملَّ الذات الأندلسية الرومانسية من بثِّ شكواها من الوجود، وعرفنا عبر مجموعة من الشواهد طيفاً من التعبير الشمولي على أوجاع النفس الشاعرة في الأندلس، وقاربت آلامها آلام الوجود بوصفه غلاف العواطف، ومساحتها في التعبير عن اعتلالها الاجتماعي، منداحة عبر المعاني الوجودية القلقة؛ حتَّى إنَّا نلامس فيها طيوف أحزاننا الشخصية عبر إعادة قراءة تلك النصوص من وجهة نظر مختلفة عن السابق، وقد تطوَّر الألم في الشعر الأندلسي، وتمدَّد حتَّى صار إلى الثورة الخارجية، التي تتَّهم الكون، وتنقد العالم الخارجي بما فيه من أذى للذات، واستزادة من آلامها.

المصادر والمراجع:

1- ابن الحداد، أبو عبد الله محمد بن أحمد. *ديوان ابن الحداد*، تحقيق: يوسف علي طويل. ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م.

2- ابن اللبانة، أبو بكر. *ديوان ابن اللبانة الداني*، تحقيق: محمد مجيد السعيد. ط2، دار الراية،عمان، 2008م.

3- ابن حمديس، عبد الجبار. *ديوان ابن حمديس*، تصحيح وتقديم:إحسان عباس. دار صادر، بيروت، 1960م.

4- ابن خفاجة. *ديوان ابن خفاجة*، تحقيق:السيد مصطفى غازي. منشأ دار المعارف، مصر، 1960م.

5- ابن خليفة، مشري . *الشعرية العربية مرجعياتها وإبدالاتها النصية*. ط1، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2011م.

6- ابن زيدون، أحمد بن عبد الله . *ديوان ابن زيدون*، شرح: يوسف فرحات. ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1994م.

7- ابن عباد، المعتمد . *ديوان المعتمد بن عباد*، تحقيق: رضا الحبيب السويس. الدار التونسية للنشر، تونس، 1975م.

8- ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي . *لسان العرب*. ط3، دار صادر، بيروت، 1993م.

9- أبو الصلت، أمية بن عبد العزيز السدَّاني . *ديوان أبو الصلت*، تحقيق: محمد المرزوقي . دار الكتب الشرقية، تونس، 1974م .

10- أبو الصلت، أمية بن عبد العزيز السَّدَّاني . *ديوان أبي الصلت*، جمع: بشير بموت. ط1، المطبعة الوطنية، بيروت، 1934م.

11- الألبيري، أبو إسحق. *ديوان ابي إسحق الألبيري*، تحقيق وشرح: محمد رضوان الداية. ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت 1991م.

12- الأيوبي، ياسين . *مذاهب الأدب معالم وانعكاسات الكلاسيكية، الرومانتيكية، الواقعية* . ط2، دار العلم، بيروت، 1984م.

13- بطرس، أنطونيوس . *الأدب، تعريفه، أنواعه، مذاهبه* . ط1، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، 2013م .

14- بوذينة، حليمة . *الحس المأساوي من خلال صرخة في وجه الموت لعباسة حسان* . رسالة ما جستير، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية جامعة محمد خيضر، سكرة، الجزائر، 2019 م .

15- التطيلي، الأعمى . *ديوان الأعمى التطيلي*، تحقيق: إحسان عباس. دار صادر، بيروت، 1963م.

16- الزبيدي، محمد مرتضى. تاج العروس من جواهر القاموس. ط2، دار صادر، بيروت، د. ت.

17- الشنتريني، أبو الحسن علي بن بسام. *الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة*، تحقيق: إحسان عباس. ط1، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1978م.

18- طرابيشي، جورج . *معجم الفلاسفة* . ط1، دار الطليعة، بيروت، 1987م.

19- المعجم الفلسفي، *مجمع اللغة العربية*، المطابع الأميرية ببولاق، 1979م.

20- المغربي، ابن سعيد . *المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف*. ط3، دار المعارف، القاهرة، 1955م.

21- المقري، شهب الدين أحمد بن محمد . *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب*، تحقيق: إحسان عباس. ط1، دار صادر، بيروت، 1968م.

22- مندور، محمد. *الأدب ومذاهبه*. د.ط، هضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الجيزة، د.ت.

23- هلال، محمد غنيمي. *الرومانتيكية*. د.ط، دارنهضة مصر، الجيزة ، د. ت.

24- هوغو، فيكتور. *عمّال البحر*، ترجمة: رمضان لا وند . دار العلم للملايين، بيروت، 2007م.